دراسة حول حقيقة زهديات أبى العتاهية

زهرا سعيدى*

الملخص

يتطرق هذا المقال إلى حقيقة الزهد ومفهومه عند الشاعر أبى العتاهية. أكان أبوالعتاهية زاهداً حقيقياً أم اتخذه كفنّ شعرى يتفنن فيه وهل كان صادقاً فى زهدياته وهل يكون زهده إسلاميا أو يقرب من مذهب الفلاسفة الذين لايؤمنون بالبعث أى من مذهب الزنادقة. كما نتعرف فى المقال على آراء معاصرى أبى العتاهية الذين شكّكوا فى زهده واتّهموه بالزندقة والبخل.

ثمّ نبين آراء الباحثين الآخرين الذين يرون أنّ زهده إسلامى، ونفسِّر آراءهم وللتفسير الصحيح لهذه الآراء نبدأ بإيضاح دوافع زهده وأسبابه ومصادره وتاريخ حياته حتّى نجيب عن الأسئلة جوابا مقنعا ونبين حقيقة زهده.

الكلمات الدليلية: الزهد الإسلامى، تقوى الله، ذم الدنيا، ذكر البعث.

*. خريجة جامعة آزاد الإسلامية فى قم.

Z_Saeidi@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٣/١٨هـ. ش

تاريخ القبول: ١٣٨٩/١٠/١٧هـ. ش

المقدمة

إنّ الزهد فی العصر العباسی نشأ بتأثیر کثرة الترف والدعوة إلی الرجوع إلی البساطة وتغلیب إلی جانب الفقراء ونقد المجتمع، علی أنّ فی الشعر جانبا من جوانب الدین الذی یوجب البساطة فی کلّ شیء. (خفاجی، ۱۹۸۱م: ۲۰) وحین انتشرت موجة الفساد والتحلل فی المجتمع الإسلامی خلال هذا العصر نشط أئمة آل البیت والصالحون من وعّاظ وزهاد فی دعوة الناس إلی حیاة التقوی والصلاح وتحذیرهم من السقوط فی أوحال الأهواء والشهوات وتذکیرهم بحقیقة الدنیا والیوم الآخر. (آذرشب، ۱۳۸۲ق: ۶۶)

وکما قد وفرّ الانقلاب العباسی العرب رخاء العیش وامتدّت موجة من الترف فینشد الشعراء للناس أغانی المجون، اندفقت فی الوقت نفسه علی بلاد العرب مجاری الحکمة فنشأت فی کلّ ذلک نزعة زهدیة تواصل الحرکة التی نجدها فی الأدب العربی منذ أقدم عصوره وکان زعیم هذه النزعة فی العهد العباسی أبا العتاهیة. (آذرشب، ۱۳۸۲ق: ۵۰) وقصدی من کتابة هذه المقالة تبیین حقیقة زهد أبی العتاهیة ومفهومه عند الشاعر. وهل أنشد قصائده فی الزهد تعبیراً من أحاسیسه الدینیة أم أنشدها رغبة فی الفن الزهدی فحسب کما قصد معاصروه من الشعراء أغراضاً أخری مثل المدیح والهجاء والرثاء والغزل وما شابه ذلک؟ أو إنّه اتخذّ هذا اللون من الحیاة لیخدع الناس عن حقیقة مذهبه وما کان فی نفسه من کراهیة وبغض الإسلام؟ هل کان زهده حقیقیا أم لا؟ فی البدایة نشیر اختصاراً إلی دوافع زهد أبی العتاهیة وعوامل ازدهار الزهد عنده وثم نبینّ حقیقة زهده.

عوامل ازدهار الزهد عند أبی العتاهیة

إنّ الشاعر أبا العتاهیة نشأ نشأة وضیعة فاسدة، إذ کان أبوه نبطیاً من أهل ورجة وصنعته الحجامة وکانت أمه مولاة لبنی زهرة ثم لمحمد بن هاشم بن عتبة بن أبی وقاصی وکانت أمّه مولاة لهم یقال لهم أم زید. (الاصفهانی، ج۴، ۱۹۲۳م: ۷)

فأبوان وضیعان ونشأة وضیعة، دفعاه إلی أن یتصل بطائفة المخنثین وبیئات المجان

ويلهو معهم كما يلهون ويشرب معهم الخمر فى مجالسهم. فمّرت الأيام بالشاعر إلى أن رأى فى منامه آية أتاه غلامه على شعره فى عتبة:

اللهُ بَينــى وبَيــن مَوْلاتــى أهدَتْ لى الصــدَّ والمَعالاتِ
منحتهــا مِهجتــى وخالصتى فــكانَ هجرانُهــا مكافاتــى
هيّمَنــى حبّهــا وصيّرنــى أحدوثةً فــى جميع جاراتى

وقال له ما أصبت أحداً تدخله بينک وبين عتبة، يحكم لک عليها بالمعصية إلّا الله تعالى؟ يقول أبوالعتاهية: فانتبهت مذعوراً وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل. (البغدادى، ج۶، لاتا: ۲۵۶)

فترک الغزل والمنادمة واختار لنفسه أسلوباً آخر فى الشعر والحياة. ومن هنا نتساءل: ما هو المحرّک المباشر الذى دفعه من حياته الماجنة العابثة إلى حياة زاهدة عابدة؟ ففى تفسير هذا التحوّل تعدّدت الآراء ومنهم المسعودى الذى قال: إنّ تحوّل أبى العتاهية إلى الزهد جاء على أثر رفض عتبة الزواج منه، بعد أن كلّمها الرشيد فى ذلک، فأنشد قصيدته: «قطعتُ منک حبائل الآمال»، ولبس ملابس الصوفية وزهد وتوقّف عن قول الغزل. (المسعودى، ج۳، ۱۹۶۵م: ۲۹۶)

ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ أبا العتاهية اتخذ شعر الزهد وسيلة للكسب مستندين إلى وقائع تفيد ذلک، ومنها ما يأتى: يروى أنّه أرسل لأبى نواس، لما قال شعراً فى الزهد، من يقول له: إنّنى تركت له جميع أغراض الشعر والزهد فنّ، سبقت إليه ووقفت نشاطى عليه، ولن أسمح لأحد سواى أن ينازعنى فيه، فوجم أبونواس لما سمع الرسالة وقال إنّه ليشق على نفسى ألا أعاود القول فى موضوع أحببته، ولكن لا سبيل إلى مخالفة أبى إسحاق. (المسعودى، ج۳، ۱۹۶۵م: ۲۹۶)

وممّا لا شکّ فيه أنّ لنشأته الوضيعة أثراً فى تحوّله إلى الزهادة فقد أراد هذا الفتى المتهتک أن يكفر بالزهد عن أوزار نفسه وبالشعر الزهدى ينفس فيه عن كآبة دفينة وضيق بكلّ أوضاع مجتمعه، فقد نشأ فقيراً، معدماً، متهماً بنسبه وعقيدته وسلوكه، واستطاع بطموحه وتحدّيه أن يصل إلى بلاطات الخلفاء ويحيى حياة القصور ويستقطب

من حوله كبار الأصدقاء ومغنيين، ويمحو بهذا ذلک العار الذى ألصق به زوراً أو بهتاناً كما استطاع أن يكنز المال ولكن هاجسه كان أقوى من وضعه القديم والجديد وعقله الرازح تحت وطأة مزاج سوداوى انتهيا به إلى رفض كل ذلک، حين رأى فيه سراباً خادعاً وأحسّ رغم النعيم الذى وصل إليه، بالغبن الاجتماعى الفادح وبجور الحكام وقد عانى هو من هذا الجور، فتكشفت له الدنيا عن عبث مطلق وتفاهة وفكّر فى تلک العزلة المنشودة يغنى فيها أحلى ما تاق إليه من معانى الزهد والاعتبار، فتهدأ تلک النفس اللهيفة. (أبوالعتاهية، ١٩٨٧م: ٨٨ و٨٩)

ويقول كفروای إنّ ذلک التحوّل كانت نتيجة لعاملين: أولهما، نابع من نفسه وعاش معه طوال حياته وثانيهما، خارجى طارىء ساقته الظروف السياسية. (الكفراوى، لاتا: ٣٧ و٣٨)

فممّا لا شكّ فيه أنّ نزعة الزهد لم تكن شيئاً جديداً عند الشاعر بل هى نزعة قديمة عنده جذورها ترجع إلى مبدأ أمره بالكوفة، بعبارة أخرى إنّ جذور هذه النزعة كانت فى داخل شخصية الشاعر منذ صغره وكان لديه الاستعداد الفطرى للزهد والميل إلى التذكير بالموت والقبر على رغم سبيل الشهوات وبكلمة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه فى مجونهم أيام شبابه لتقتل فيه ميله إلى الحرص والرزانة. جاراهم ولكن إلى حين، واندفع فى تيار الحياة ولكنّه لم يرخ لنفسه العنان. ولم يلبث أن رأيناه يتراجع عنه مشمئزاً مهيباً بالآخرين أن سلكوا سبيل الرشاد. (المقدسى، ١٩٩٢م: ١٥٣)

وبجانب هذه المؤثرات، أدرک أبوالعتاهية عدداً من العباد والزهاد واتصل بحلقاتهم وشعره فى مدح زهاد عبّادان يدلّ على اتصاله بعباد تلک الديار، وتأثره بهم، فنحن نعتقد أنّه قد تأثر بهذه النماذج الطاهرة ونستنتج أنّ العامل الدينى من أهم المؤثرات التى دفعته إلى الزهد والتنسک كما كان للخلفاء تأثير فى انصراف الشعر إلى الزهادة؛ فكان للدولة العباسية باعتبارها دولة إسلامية فى فكرتها الأولى أثر فى ازدهار حركة الزهد بصورة عامة، فنراهم يحضّون الشعراء على القول فى هذا المجال، على الرغم من حياتهم الفاسدة. فالخليفة المهدى، قد حزن على وفاة ابنته حتى امتنع من الطعام والشراب

فوعظه أبوالعتاهية بأبيات وأنشده:

مـــا للجَديدينِ لايبْلى اختلافُهما وكلُّ غَـضٍّ فيهمـا بـالٍ
يا مَنْ سَـلا عن جَيب بعدَ مَيتةٍ كَمْ بعدَ موتِك أيضاً عنك منْ سالَ
كأنَّ كلَّ نعيـمٍ أنـتَ ذائقـةٌ مِنْ لذة العيش، يحكى لمعة الآلِ
لاتلعبـنَّ لک الدنيـا وأنت ترى ما شِـئتَ مِنْ عِبَرٍ فيهـا وأمثالٍ
ما حيلةُ المـوت إلّا كلُّ صالحه أو فمـا حيلـةٌ فيـه لمحتـالٍ

فقال المهدى له: «أحسنت، ويحک أصبت ما فى نفسى ووعظت وأوجزت! ثم أمر له لكلّ بيت بألف درهم.» (الدش، ١٩٦٨م: ١٤٢) فكلّ هذه المؤثرات تعاونت معا لينصرف أبوالعتاهية من حياته اللاهية الماجنة، إلى حياة طيبة زاهدة معظمها بكاء وتضرّع وتبتّل وابتهال وتوبة واستغفار والدعوة إلى العمل الصالح والتذكير بالموت والقبر والجنة والنار والعذاب والعتاب والنعيم والجحيم.

الزهد الإسلامى

كان للقرآن الكريم وتعاليمه أثر بالغ فى نفوس المسلمين الأوائل، على صعيد الفكر والروح فتحّولوا من عشق الذات إلى عشق المثل، وتخففوا من ربقة المادة إلى ربقة الروح وكان النبى (ص) خير مجسد لتلک المثل والتعاليم الإلهية، حين عاشها أولا، ثم دعا إلى أن يعيشها أقرباؤه وصحابته ومن جملة دعواته، دعوته إلى الوسيطة، إذا التوسط تارة فى القرآن، كما فى الآية: ﴿لاتجعل يدک مغلولة إلى عنقک ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً﴾ وتارة على لسانه: «خير الأمور أوسطها». (أبوالعتاهية، ١٩٨٧م: ٧٠ و٧١)

هذا النوع من الزهد يدعو إلى العمل الخير والكسب الحلال، زهداً فى الحياة لا عن الحياة وإنّه زهد إيجابى صريح المصادر، فلم يداخل هذا الزهد أنّى مؤثر خارجى، بالرغم من وجود هذا المؤثر على تخوم الدولة الإسلامية الناشئة، لكنّ هذا الزهد لم يبق على صفائه، فقد خولط عند بعض شعراء العصر الأموى، بشىء من مانوية أو بوذية

نتيجة اتساع الفتوح التى جاءت بالموالى من فارس والهند والصين والروم، وهؤلاء كان منهم الزنديق والمانوى والزرادشتى والبوذى، فكان لابدّ أن يتأثر بعض شعراء الزهد بمفهوم هؤلاء للكون والطبيعة والله والخير والشر والمعاد. (المصدر نفسه: ٧٢ و٧٤ و٧٨ و٧٩ بتلخيص)

أما فى العصر العباسى فإنّ الزندقة والمجون قد شاعا فى طبقة محدودة من الناس، كان جمهورها من الفرس، وكانت موجة المجون أكثر حدّة، لكن لم تكن عامة فى المجتمع، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين. كان الوعظ فى هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة. وكان كثير من النساك يحيون حياة زاهدة خالصة بعبادة وتقشف والانقباض عن الاستتماع بالحياة وملذاتها، انتظاراً لما عند الله من النعيم، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطا وثيقا بين زهد هؤلاء النساك وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا منتشرين فى العالم الإسلامى، يختلف عن الزهد المسيحى فى جوهره، إذ الزهد عند المسيحيين يقوم على أساس من فكرة الخطيئة، والإسلام لايقرّ بهذه الفكرة من تعذيب الجسم كما حاولوا أن يربطوا بين هذه المقدمات والبوذية والهندية، فالعصر العباسى شهد لونين من الزهد: ١. زهداً إسلامياً خالصاً ٢. زهداً مانوياً مارقاً، وهو الذى يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية، إذ المانوية تتأثر بها من قديم وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة وكان من تمام النسك فى هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس. (ضيف، ١٩٧٣م: ٨٦ و٨٨ بتلخيص)

حقيقة زهد أبى العتاهية

هل كان أبوالعتاهية زاهدا حقا أم لا؟ وهل أنشد قصائده فى الزهد تعبيراً عن أحاسيسه الدينية أم أنشدها رغبة فى الفنّ الزهدى فحسب أو إنّه اتخذ هذا اللون من الحياة ليخدع الناس عن حقيقة مذهبه وما كان فى نفسه من كراهية وبغض الإسلام؟ وهل كان زهده إسلامياً خالصاً؟

علمنا خلال دراستنا أنّ أباالعتاهية ختم حياته بالزهد ولكنّ الباحثين فى تأويل هذا الزهد فريقان، فمن الباحثين من وقفوا موقف الشكّ من زهادته وتنسكه، ومنهم من وجدوا فيه زاهداً متهجداً حقاً لم يترک فريضة من فرائض الدين، ولكلّ من الفريقين فى موقفهما أدلّة يعتمدان عليها، أما الذين أخذوا جانب الشک من زهده فيعتمدون على روايات ذكرتها كتب تاريخ الأدب، ونحن نذكر شذرات من تلک الروايات حسب ما يقتضيه البحث.

يقول أبوالفرج الإصفهانى: «وأكثر شعره فى الزهد والأمثال.» ويضيف فيقول: من ناحيته أولى «كان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة، ممّن لايؤمن بالبعث ويحتجون بأنّ شعره إنّما هو فى ذكر الموت و الفناء و ذكر النشور و المعاد.»

ومن ناحية ثانية «كان دائم الحرص، دائم الجمع شحيحاً، تروى فى حرصه حكايات كثيرة.» (الإصفهانى، ج۴، ۱۹۲۳م: ۲ و۴)

لخصّ أبوالفرج، فى قوليه هذين، القضية، أكثر شعر أبى العتاهية فى الزهد، غير أنّ زهده، كما رأى قوم من معاصريه يقرب من مذاهب الفلاسفة الذين لايؤمنون بالبعث، أى يقرب من مذاهب الزنادقة، علاوة على أنّه لم يكن صادقاً فى دعوته إلى الزهد، إذ إنّه كان بخيلاً، حريصاً على جمع المال. وقال منصور بن عمار: «أبوالعتاهية زنديق، أما ترونه لايذكر فى شعره الجنّة ولا النّار وإنّما يذكر الموت فقط.»

ومن الأدلّة التى قدّمها ابن عمّار قول الشاعر فى عتبة:

وكأنَّ عتابة مِنْ حسنها ... دُمية قسٍّ فقنّتْ قسّها
يا ربِّ لو أنْسَيتَنيها بما ... فى جنّة الفردوس لم أنسَها
انّ المليکَ رآک أحـ ... ـسنَ خلقة ورأى جمالک
فَحَذا بقدرة نفسه ... حورُ الجنان على مثالِک

فقد يقول منصور بن عمار فى التعليق على البيتين الأوّلين: يتهاون بالجنّة ويتبذّل ذكرها فى شعره بمثل هذا التهاون. وفى التعليق على البيتين الأخيرين: أتصوّر الحور على مثال امرأة آدمية، والله لايحتاج إلى مثال، وأشاع ذلک على لسان العامة، فلقى

منه البلاد.

ويروى أبوالفرج حديثاً لهبه الله بن إبراهيم بن المهدى جاء فيه أن أباه رمى أبا العتاهية فى مجلسه بالزندقة، فبعث إليه يعاتبه، فكتب إليه قصيده منها:

توّكلــتُ بالدنيــا تَبْكيهــا وتنـــ ـدبُها و أنت عــن القيامة لاهى
إنّــى رأيتُــک مظهــرَ الزهــادة تحتــاج منک لهــا إلى أشــباهِ

وعرف أبوالعتاهية ما يتهم به، فكان يشكو أمره لأصدقائه ويقول:

فيــا عَجَبا كيــف يعصَى الإ لهُ أم كيف يجحَــدُه الجاحدُ
وفــى كلّ شــىءٍ لــه آيــةٌ تــدلُّ علــى أنّــه واحــدٌ

(الإصفهانى، ج۴، ۱۹۲۳م: ۳۴ و۳۵ و۱۰۱ و۱۰۲)

وفى ما يتعلّق بالأمر الثانى، وهو البخل وجمع المال، يروى أبوالفرج:

سأل ثمامة بن الأشرس أبا العتاهية، لمّا أنشده:

إذا المــرءُ لم يعتق من المال رقّة تُملّكُــهُ المالُ الذى هــو مالكه
ألا إنّمــا مالــى الذى أنــا منفقٌ وليس لى المــالُ الذى أنا تاركُه
إذا كنــتَ ذا مال فبــادِرْه بالذى يحِــقُّ وإلا اســتهلكتَهُ هوالكــه

(أبوالعتاهية، ۱۹۶۱م: ۲۴۲)

أتؤمن بأنّ هذا قول رسول الله (ص) وأنّه الحق؟ قال: نعم، قال: «فلم تحبس عندک سبعاً وعشرين بدرة فى دارک، ولاتأكل منها ولاتشرب ولاتزكّى، ولاتقدّمها ذخراً ليوم فقرک وفاقتک؟ فقال: يا أبا معن، والله انّ ما قلت لهو الحق، ولكنّى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس. (الإصفهانى، ج۴، ۱۹۲۳م: ۱۶)

وقال البعض إنّه لم يكن صادقاً فى الدعوة إلى الزهد، إذ إنّه اتّخذ هذا الغرض الشعرى رغبة فى الفن الزهدى استناداً إلى ما حكاه الحصرى عنه قال: دخل أبوالعتاهية على ابنه محمد، وقد تصوّف فقال: ألم أكن قد نهيتک عن هذا؟ فقال ابنه وما عليک أن تعوّد الخير، فأخذ أبوالعتاهية يؤنّبه ويقرعه، ثم قال له: أقبل على سوقک فإنّها أعود إليک وكان ابنه بزّازاً.

وأيضاً فی هذا المعنی ما نقله ابن منظور عن مخلّد الطائی قال: «جاءنی أبوالعتاهية فقال لی: إنّ أبانواس لايخالفک وقد أحببت أن تسأله أن لايقول فی هذا الزهد شيئاً، فإنّی قد ترکت له المديح والخمر والهجاء والرقيق وما فيه الشعراء وللزهد شوقی، فبعث إلی أبی نواس فجاء إلیَّ وأخذنا فی شأننا فقلت لأبی نواس: إنّ أبا إسحاق قد عرفت جلاله وتقدّمه وقد أحبّ أنّک لاتقول فی الزهد شيئاً فوجم أبونواس عند ذلک وقال: يا أبا مخلّد قد قطعت علی ما کنت أحبّ أن أبلّغه من هذا... ولاأخالفک فيما رغب إليه. (ابن منظور، ١٩٢٧م: ٧٠) بهذا نستطيع القول إنّه قد اتّخذ الزهد طريقة فنّية لکی ينفرد بها عن بقية الشعراء.

ولو تدّبرنا فی أدّلة هذه الطبقة من مخالفيه نجد أنّ مردّ الاتهامات مبنی علی ما يلی:

١. سيرته الأولی ٢. حرصه علی المال ٣. تبرّم الناس بالوعظ والإنذار

فلنناقش هذه الروايات ونبينّ ما وصل إليه بحثنا عن حقيقة زهده مشيرين إلی الروايات التی تؤيد صدق زهادته ومدی إيمانه بالإسلام والقرآن والحديث الشريف.

أما سيرته الأولی، فهی الصفحة الأولی من حياته، ولکنّه عدل تلک الحياة الفاسدة إلی الزهادة، فلبس الصوف وترک الحضور والمنادمة والقول فی الغزل وذلک «لمّا قدم الرشيد الرّقة.» (الإصفهانی، ج٤، ١٩٢٣م: ٦٧)

فالصفحة الثانية، معظمها تبتّل وتضرع وتهجّد وبکاء علی ماضيه الماجن، فنمسع إحدی مناجاته:

فيــاذُ لّــی ويــا خَجِلــی إذا مــا قــالَ لــی ربّــی
أمــا اسْــتَحْييتَ تَعْصينــی ولا تخْشَــی مــن العُتَــب
فتُحب ممّا جنيتَ عســی تعــودُ إلــی رضْــی الربِّ

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ٤٠)

وممّا يدلّ علی صحة انصرافه من المجون إلی الزهد والتقشف وترک الغزل ما نقله أبوالفرج الأصفهانی عن هارون بن مخارق، قال: حدّثنی أبی قال: جاءنی أبوالعتاهية

فقال: قد عزمت على أن أتزوّد منک يوماً تهبه لی متی تنشط؟ فقلت: متی شئت فقال: أخاف أن تقطع بی فقلت والله لافعلت وإن طلبنی الخليفة، فقال: فيكون ذلک فی غد فقلت أفعل فلمّا كان من عند باكرنی رسوله فجئته فأدخلنی بيتاً نظيفاً، فيه فرش نظيف ثم دعا بمائدة عليها خبز سميذ وخلّ وملح وجدی مشوی، فأكلنا منه ثم دعا بمسک مشوی فأصبنا منه حتی اكتفينا ثم قال: غنّنی فی قولی:

أحمـد قـال لـی وما يـدْری أتحـبّ الغـداة عتبـة حقـاً

فغنيته وهو يبكی وينشج، ثم يشرب قدحاً آخر ثم قال غنّنی: فديتک فی قولی:

خليلی ما لی لاتـزال مضرّتی تكون مع الأقدار حتماً من الحَتْم

فغنيته إياه، ومازال يقترح علی كل صوت غنّی به فی شعره، فأغنيه ويشرب ويبكی حتی صار العتمة، فقال: أحب أن تصبر ما أصنع فجلتُ فأمر ابنه وغلامه، فكسرا كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهی ثم أمر بإخراج كل ما فی بيته من النبيذ وآلته، فأخرج جميعه فمازال يكسره ويصبّ النبيذ وهو يبكی حتی لم يبق من ذلک شیء، ثم نزع ثيابه واغتسل ثم لبس ثياباً بيضاً من صدف ثم عانقنی وبكی، ثم قال السلام عليک يا حبيبی وفرحی من الناس كلّهم سلام الفراق الذی لا لقاء بعده وجعل يبكی، وقال: هذا آخر عهدی بک فی حال تباشر أهل الدنيا. (الإصفهانی، ج۴، ۱۹۲۳م: ۱۱۳ و۱۱۴)

وهذه الرواية تدلّ علی أنّ الشاعر تاب من حياته الأولی، وترک سيرته الماجنة وختم حياته بزهادة؛ أما حرصه علی المال وإن يكن بعضهم قد لاحظوا أنّ الشاعر يأمر بالحق لايفعله، فكان حريصاً علی جمع المال فی الوقت الذی كان يدعو فيه إلی الزهد، وقد تحدث عن مقت الله لهذا الإنسان، فقد أجاب هو عن ذلک، كما مرّ بنا، بأنه كان يخاف الفقر والحاجة للناس، وقد يكفی هذا لفهم الحرص، فليس أمر من الفقر وحاجة الناس وبخاصّة للإنسان الكريم الذی عاناهما، وليس لديه أی أمان منهما فی زمان «إذا رمی لمصيب» وقد عانی هو من هذا الزمان، فكلّمه بلسان شاعر وخطيب، وفی هذا يقول:

إنّ الفنـاءَ مِن البقـاء لَقريبٌ اِنَّ الزمـانَ إذا رَمـی لَمُصيبٌ

إنّ الزمــانَ لِأهلــه لمؤدِّب　　لو كان ينْجَــعُ فيهم التأديبُ
صفةُ الزمــانِ حكيمةٌ وبليغةٌ　　إنَّ الزمانَ لَشــاعرٌ وخطيبٌ
ولقد يكَلِّمک الزمان بألْسُنٍ　　عربّيةٍ وأراک لســتَ تُجيب

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ١٩ و٢٠)

كما أنّ التكسب بالشعر فى تلک الفترة وسيلة من وسائل الحصول على المال، والزهد الإسلامى لايمنع صاحبه من الأخذ بالسعى وبالأسباب فى الحصول على المال والرزق، وكان التكسب بالشعر سبباً من تلک الأسباب التى ينال بها الفرد الأجر من الخلفاء والدولة.

وعلاوة على هذا كلّه فالشاعر لايدّعى أنّه قد يئس الوصول إلى المرتبة العلياء من النقاء والصفاء، وإنّما يقول إنّه إنسان عادى، تتمادى نفسه بالهدى، فيسعى إلى الحدّ من تماديها، والعدول بها إلى الطريق القويم، فرغبته دائماً ممزوجة بزهادته، كما يقول، وهو دائم باق، فى جهاد للنفس دائم كما نقرأ فى قوله:

ألا مَنْ لنفسى بالهوى قد تمادَتْ　　إذا قلتَ قد مالتْ عن الجهل عادتِ
تزاهدتُ فى الدنيــا وإنى لراغبٌ　　أرى رغبتــى ممزوجــةٌ بزَهادتى

(المصدر نفسه: ٤٥)

فهو إن كان حريصاً لم يكن شديد الحرص، حيث نشكّ فى صدق زهدياته، لأنّ الزهد الحقيقى لايمنع صاحبه من أن يعيش وإن يجمع المال.

هل كان زهده إسلامياً

ويرى الباحثون كما قلنا فى السابق أنه قد ضجر الناس بوعظه وإنذاره وكثرة ذكره الموت والقبر والفناء والدمار والخراب، كما قيل فيه إنّه زنديق، أما ترونه لايذكر فى شعره الجنّة ولا النار وإنّما يذكر الموت فقط. فحكموا عليه وقالوا: إنّه لم يكن زاهداً إسلامياً حقاً.

ويرى شوقى ضيف، من المحدثين، أن معاصرى أبى العتاهية، تشكّكوا فى هذا الزّهد

الذى طرأ عليه، وردته كثرتهم إلى عناصر مانوية، حتى أوشک حمدوية صاحب الزنادقة المانويين أن ينزل به العقاب الصارم الذى كان ينزله بأمثاله، لولا أن موّه عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين، ويستشهد باتهام منصور بن عمار له بأنه زنديق لأنه يكثر من ذكر الموت فى شعره، ولايذكر الجنة والنار، ويرى أن هذه ملاحظة دقيقة، ويذكّر بأن: «المعروف عن المانوية، أنهم كانوا يدعون للزهد فى الدنيا والعمل للآخرة، كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبى العتاهية الزاهدة.»

وينتهى ضيف إلى القول: «فهو ليس مانوياً ثنوياً، يؤمن بأن للعالم إلهين كما ظنّ ابن المعتز وبعض معاصريه، إنما هو مانوى من نمط جديد؛ إذ يمزج بين المانوية والإسلام، إلّا إذا كان موّه عن مانوية الخالصة بادعائه وحدانية ربّه.» ويرى ضيف، ليؤيد ما ذهب إليه، أن قصيدة أبى العتاهية: «يا من تشرف بالدنيا وزينتها» تصوّر الناسک فى صورة بوذا المشهورة، وهذا ما سبق للمستشرق غولد تسيهر أن قاله.

وقد ناقش الكفراوى هذا الرأى وردّه، كما مرّ بنا؛ ويفسّر ضيف نزعة البخل عند أبى العتاهية بمانويته، إذ إن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوى الصادق ينبغى أن يعيش على المسألة. (ضيف، ج٢، ١٩٧٣م: ٢٤١ و٢٤٣)

أما بالتدبّر فى مفاهيمه الشعرية فى هذا المجال، فنصل إلى رأى جديد فى حقيقة زهده. ويرى غير باحث أنّ مصادر زهده إسلامية خالصة. كما يقول عبدالله التطاوى: بدأ زهد أبى العتاهية إسلامياً يقوم على أساس من التقشف والدعوة إلى التقوى والورع. (التطاوى، لاتا: ١٤٣)

ونحن لانرفض تأثره ببعض فلسفات وعقائد قديمة مختلفة، فقد رأينا يعيش فى بيئة العلم والمعرفة والتثقف عن طريق سماع أو معايشة أو مدارسة لكلّ ما كانت تعجّ به الكوفة وبغداد وقصور الخلفاء المهدى، الهادى، والرشيد من تيارات فكرية وجدل كلامى وعلوم وافرة وفنون راقية وهو تغير بكلّ ذلک، ويشارک متأثراً بتلک التيارات لاسيما المانوية والبوذية استخدم ما فى الثقافات الأجنبية لتدعيم فكرته فى الموت والحياة.

(أبوالعتاهية، ١٩٨٧م: ٣٣)

وهو يعين أهل العقل والدين والتقوى، ويبعثهم على الزهد فى الدنيا، ويذكّرهم بفقد الموت وما بعده من أمر الموت وما فيه من موعظة وتذكرة بالغة راسية، عسى أن تلين بها القلوب القاسية. (فيصل، ١٩٦٥م: ٢٦)

ويقول خليف: «حديث أبى العتاهية عمّا بعد الموت يدور كلّه فى جو إسلامى خالص، ويستمرّ معانيه وأفكاره مما ورد عن هذا الموضوع فى القرآن والحديث. ولهذا نلاحظ أنّ الميزة التى تميز شعر أبى العلاء حين كان يتحدّث عن مشكلة ما بعد الموت، تختفى كليّا من شعر أبى العتاهية ليحلّ محلها الإيمان الدينى المطمئن واليقين الثابت الذى يستمد ثباته من الدين، لا من العقل.» (بهجت، لاتا: ٧٧)

وأما ما يدّل على اقتباس مفاهيم زهده من القرآن الكريم: ﴿كلّ نفس ذائقة الموت﴾ (آل عمران: ١٥٨)، ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ (النساء: ٧٨)، ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت﴾، ﴿قل إنّ الموت الذى تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾ (الجمعة: ٨) ومن الحديث الشريف: يقول النبى: «أكثروا ذكر هادم اللذات، الموت وأكثروا ذكر الموت، فإنّه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا.» (فيض كاشانى، ج٨، لاتا: ٢٣٩) و«كفى بالموت واعظاً» ومن كلام الإمام على بن أبى طالب (ع): «دلّل قلبك بذكر الموت» (المصدر نفسه:٢٤١)

فتدلنا الآيات القرآنية، والأخبار الواردة على أنّ هذه المفاهيم مقتبسة من الإسلام ولا غيره. ولابدّ من واعظ أو وعّاظ فى كلّ عصر وفى كلّ حال يذكرون الإنسان بالرسالة التى يحملها، حيث لايغفل من واجبه الإلهى ومصيره نحو الموت والحساب والعتاب. وحينما ينادى أبوالعتاهية الإنسان نحو خالقه ويذكر القبر والبعث والتخويف بيوم الحساب قصده، تحطيم القيود المادية التى كانت نتيجة أنانيته.

ثم الأخلاق والحكمة، يعرضهما أبوالعتاهية فى معرض دينى فيوصى بطاعة الله وتقواه، ويحثّ على الصبر والصدق والرفق والقناعة وهو يعتقد أنّ هذه الدنيا ليست سوى آمال ضائعة وسراب خادع وخيال سريع التلاشى لا حلاوة فيها. (الفاخورى، ج٢،

١٩٩١م: ٧١٧ و٧١٨)

هل كان زاهدا متشائما

ويرى بعض الباحثين أنّ أبا العتاهية بشعره ينشر على الحياة ظلاً قائماً ويجعلك تحيا فی جوّ من التشاؤم المرير أمام القبور وما تحتويه من هياكل ومن جماعهم وفی ظلمة القبر يتساوی الغنی والفقير والحقير والشجاع والجبان. (جماعة من المؤلفين، ١٩٦۴م: ۶۶٠) ويری شوقی أنّ أبا العتاهية يسود زهدياته تشاؤم أسود حزين. (ضيف، لاتا:١٧٠)

ويؤيد هدارة تشاؤمه ويقول: وواضح من عناصر شعر أبی العتاهية الزهدی أنّ التشاؤم يظلّه بروحه الكئيبة. (هدارة، ١٩٩١م: ٣٠) أما برغم نظراته فی الدنيا وأمورها وتشاؤمها القليل لجو الحاكم، أشعاره فی الزهد والمواعظ والحكم لا مثل لها، كأنها مأخوذة من الكتاب والسنة وما جری من الحكم علی ألسنة سلف هذه الأمة.والذين يتهمونه بالتشاؤم ويحكمون عليه بقتل روح الابتكار والعمل اعتماداً علی هذه الأبيات:

لدوا للمــوت وابنوا للخراب   فكلُّكــم يصيــر إلــی تَباب
لِمنْ نبنــی ونحن إلی تراب   نصير كما خلقْنــا مِن تراب
ألا يا موتُ لــم أرَ منك بُدّاً   أتَيتَ وما تحيف وما تُجابی

(أبوالعتاهية، ١٩۶١م: ۴۶)

حينما نتأملّ فی مصادر شعره هذا، يبدو لنا أنه اقتبس هذه المفاهيم من المصادر الإسلامية، فلو ننظر فی نهج البلاغة نجد ما يعادل هذه المفاهيم لفظاً ومعنی. مثل قوله(ع): «إن لله ملكاً ينادی كل يوم لدوا للموت وأجمعو للفناء وابنوا للخراب.» (نهج البلاغة، الجزء الرابع: ۵۴۶)

وأيضاً له (ع): «بادروا الموت الذی إن هربتم منه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم، وإن نسيتموه ذكركم.» (المصدر نفسه: ۵۵۸) فلا شكّ أنّ مصادر زهده إسلامية خالصة، ثمّ إنّه اهتمّ بأمور الناس ولاسيما الفقراء ولمّا رأی الفوارق الاجتماعية بين الناس ثار علی الأغنياء والطبقات المترفة، ويخاطب فی شعره الناس العاديين وأشعاره فی هذا المجال

تتحدّث مباشرة عن الطغيان الذى ساد من بعد النبى محمد (ص) وعن الشرائع التى درست، والجوع، والعرى، فكأنّه بهذا كان يمثّل صرخة الناس العاديين المقهورين الذين لايجدون مكانهم الذى يطمحون إليه، وإن كانوا مثله من النوابغ النابهين، فـ«الذلّ» قيد أزلى لا فكاك منه، ومن هذه النماذج الشعريه نذكر:

فأمّا الّذِى قد ماتَ والذِكرُ ناشـرٌ فَمَيتٌ لَـهُ دِينٌ بِـهِ الفَضلُ ينعَتُ
وأمَّا الَّذِى يمشِى وقَد مَاتَ ذِكرُهُ فَاحمَـقُ أفنَى دِينَـهُ وهُو أموَتُ
ومَا زَالَ مِن قَومِى خَطِيبُ وشَاعِرُ وحَاكِـم عَـدلٍ فَاصِـلٌ مُتَثَّبِـتُ
سَـأضرِبُ أمثَالاً لِمَن كانَ عَاقِلاً يسِـيرُ بِهَـا منِّـى رَوِىٌّ مُبيَّـتُ
وَحَيَّهُ أرض ليس يُرجَى سليمُها تَرَاهَـا إلَـى أعدَائِـه تَتفلَّـتُ

والذين قالوا إنّه لايؤمن بالبعث، وانّه زنديق، وإنّ شعره ومواعظه إنما هى ذكر الموت، قد بان شعره لمن طالعه وعنى به كذبهم وافتراء وهم لما فيه من التوحيد وذكر البعث والإقرار بالجنة والنار والوعد والوعيد وبرهان ذلك فيما نورده من أشعاره:

اُذكـرْ معـادك أفْضـلَ الذكر لاتنـسَ يومَ صبيحةِ الحشـرِ
يـومَ الكرامـةِ للألـى صبروا والخيـرُ عندَ عواقـبِ الصبر
فـى كلِّ مـا تلتـذُّ أنفسُـهم أنهارُهـم من تحتِهـم تَجْرى
أخـى مـا الدنيـا بواسـعَةٍ لمُنى تَلْتاج منك فى الصدورِ
تَرْتـاحُ مِـنْ عبرٍ إلى سـعةٍ وتفـرُّ مِـنْ فقـرٍ إلـى فقـرٍ
أكثـرتَ فى طلـب الغنى لَعِبا وغنـاک أن ترضى عن الدهر
والخيـر مـال أنـت كاسـبُه مـا كان عنـدالله مـن ذخـرٍ

نفهم من هذه الأبيات أنّه يأمر الناس بالكرامة والصبر والتقوى تجاه اللذات الدنيوية بما يروا فى الآخرة من النعمات الوافرة والإنسان فى الدنيا كظمآن فى قفار خالية، يعنى الغناء الواقعى يكون فى الآخرة بما يذخر فى خلدة الدنيا للآخرة، ويبقى عند الله ويرى حصوله ونتائجه. (فيصل، ١٩٦٥م: ٣٧ و١٧٢ بلتخليص)

وكذلک يرى أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، ويحصد الزرع منها ما زرع فيها من عمله

الصالح فيقول:

وأعلم بأنّک مسؤول ومفتحص　　عما عملت ومعروض على العمل

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ٢٥٦)

فبــادِرْ بالصالح وأنت حى　　لعلَّــکَ أنْ تنــالَ به رضاه

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ٣٥٦)

والشاعر يعجب ممّن يقرأ فى كتاب الله ما يأمر به ولايعمل بذلک، وهو يزعم أنّه مسلم ويروى أنّ الله بين مقت هذا الإنسان الذى يأمر بالحق ولايفعله فيقول:

يــا ذا الذى يقرأ فى كتبه　　مــا أمــرَ الله ولايعمــل

قد بين الرحمنُ مَقْتَ الذى　　يأمــر بالحــق ولايفعل

مــنْ كان لاتُشــبه أفعالُه　　أقوالَــه فصمتُــه أجمــلُ

(المصدر نفسه: ١٦٩)

ويبدو البحث عن عناصر مانوية، فى رؤية الشاعر وشعره، نوعاً من السعى إلى إثبات تهمة مقررة سلفاً، كأنّه ينبغى أن يكون لكلّ ظاهرة جديدة فى الشعر العربى أسبابها الخارجية. وقد بين كفراوى، تهافت القول بأنّ بوذا هو المقصود فى إحدى قصائده، وحدّد المعنى الحقيقى فيها، وهوالإمام موسى الكاظم (ع). وبين السيد محسن الأمين أنّ الشاعر يوظف الموت، بوصفه قوة قاهرة فى الوعظ، وهذا هو لأجدى، علاوة على أنّه، أى الموت، كان مائلاً، كما لاحظنا آنفاً فى أعماق ذاته منذا البدايات ومثل، فى ما بعد، دور المخلّص من هذه الدنيا التى تقتل أزواجها، المفضى إلى حياة ثانية، فيها الجنة، ولهذا فهو يخاطب «خاطب» هذه الدنيا فيقول له:

يا خاطبَ الدنيا إلى نفسها　　إنَّ لها فى كلّ يوم عويل

ما أقتــلَ الدنيا لأزواجها　　تعدُّهــم عدّاً قتيــلاً قتيل

(أبوالعتاهية، ١٩٦١م: ١٧٣)

أسئلُ عن الدنيا وعن ظلّها　　فإنَّ فــى الجنّة ظلّا ظليل

وفى هذا القول ردّ على من يذهب إلى أنه لم يذكر البعث والحياة الثانية والجنة. وهذا

الرأى لايصدر عن استقراء شعر الشاعر، وإنّما يعيد ما قيل ذات مرّة، من دون العودة إلى ديوان الشاعر للتأكد من ذلک، ومن نماذج ذكره للبعث والحساب، نقدّم على سبيل المثال:

ألا إنّ يومـاً أدان كمـا دنـت ... ليحصى كتابى ما أسأتُ وأحسنتُ
ألـم تـر أنّ الأرض منزل قلعه ... وإن طال تعميرى عليها وأزمنتُ
فلـو أنّـا إذا متنـا تُركنـا ... لـكان المـوت غايـة كلِّ حى
ولكنّنـا إذا متنـا بُعِثنـا ... ونُسـأل بعـده عن كلّ شـىءٍ

(المصدر نفسه: ۴۶)

النتيجة

نستنتج من السطور السابقة، أنّه كان فى نفس أبى العتاهية جذور قديمة من التأثر بالزهد والميل إلى ذكر الموت على رغم نشأته الماجنة وحياته العابثة. وزهده الحكيمة كانت فى أصل طبعه ومزاجه وكانت ردّة فعله من خطيئاته طول حياته وما يراه من ظلم وجور وفتک زمانه وزهدياته على الإجمال موجّه إلى العقل وأقرب إلى الخطب المنبرية البليغة ويجمع بين دفتيه شعراً كثيراً فى التذكير بيوم القيامة وذكر الجنة والنار ولهذا الجانب من شعره أهمية، والذين عدوّا زهده غير إسلامى ومانوياً اقتصاراً على التذكير بالموت وذم الدنيا، قد أخطؤوا، وإنّما يعيد ذلک من دون العودة إلى ديوان الشاعر للتأكّد من ذلک كما كان هذا الأمر نتيجة حسد بعض معاصريه، ففكّر أبوالعتاهية فى أحوال الحسّاد، ورأى فيهم ظلما وحسدا وبلاء.

المصادر ومراجع

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

آذر شب، محمدعلى. ۱۳۸۲ش. *تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى*. تهران: انتشارات سمت.

ابن منظور. ۱۹۲۷م. أخبار أبى نواس. القاهرة: لانا.

أبوالعتاهية، خليل شرف الدين. ١٩٨٧م. *الموسوعة الميسرة*. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
أبوالعتاهية، خليل شرف الدين. ١٩٦١م. *الديوان*. بيروت: دار المكتبة العلمية.
الإصفهانى، أبوالفرج. ١٩٢٣م. *الأغانى*. ج۴. القاهرة: دار الكتب.
البغدادى، الخطيب. لاتا. *تاريخ بغداد*. ج۶. بيروت: دار الكتاب العربى.
بهجت، مصطفى. لاتا. *التيار الإسلامى فى الشعر العباسى*. بغداد: وزارة الأوقاف والشؤون العربية.
التطاوى، عبدالله. لاتا. *القصيدة العباسية*. القاهرة: مكتبة الغريب.
جماعة من المؤلفين.١٩٧۴م. *المفيد فى الأدب العربى*. منشورات التجدى للطباعة والنشر.
الدش، محمود. ١٩۶٨م. *أبوالعتاهية حياته*. القاهرة: دار الكاتب العربى.
ضيف، شوقى. ١٩٧٣م. *تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأوّل)*. ج۲. القاهرة: دار المعارف.
ضيف، شوقى. لاتا. *الفن ومذاهبه فى الشعر العربى*. القاهرة: دار المعارف.
خفاجى، عبد المنعم محمد. ١٩٨١م. *تاريخ الأدب فى العصر العباسى الأول*. الأزهريه: مكتبة الكليات.
الفاخورى، حنا. ١٩٩١م. *الموجز فى الأدب العربى وتاريخه*. بيروت: دار الجيل.
فيصل، شكرى. ١٩۶۵م. *أبوالعتاهية؛ أشعاره وأخباره*. دمشق: مكتبة دار الملاح.
فيض كاشانى، محسن. لاتا. *المحجة البيضاء*. قم: مطبعة النشر الإسلامى.
الكفراوى، محمد عبد العزيز. لاتا. *أسطورة الزهد عند أبى العتاهية*. القاهرة: دار النهضة مصر.
المسعودى، مروج الذهب. ١٩۶۵م. القاهرة: دار الأندلس.
المقدسى، أنيس. ١٩٩٢م. *أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى*. بيروت: دار العلم للملايين.
هادى بور نهزمى، يوسف. *«الزهد الإسلامى وتطوره إلى التصوف منذ القرن الثانى حتى القرن الرابع الهجرى»*. فصلية التراث الأدبى. صيف ١٣٨٨ ش. العدد٣. صص ٢٢٨-٢١٧.
هدارة، مصطفى. ١٩٩١م. *اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى*. مصر: نشر دار المعارف.